(٥٤)

الأَحَدُ الوَاحِدُ ﷻ

جاء في «صحيح البخاري»: أن رسول الله ﷺ قال: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تَعْصِنِي! فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ! إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ؛ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟! فَيَقُولُ اللهُ -تَعَالَى-: إِنِي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ! مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ».

الذيخ: ذكر الضباع كثير الشعر.

ربنا الرحيم ﷻ لا يقبل شفاعة إبراهيم عليه السلام في أبيه؛ لأن أباه مات مشركًا، والله حرم الجنة على كل كافر مشرك، ولأن الله وعد إبراهيم أن لا يخزيه في يوم القيامة؛ فإنه يمسخ في ذلك اليوم أباه ضبعًا، فيلقى به في النار، فلا يعرف أحد أنه والد إبراهيم، فلا يخزى به.

فشفاعة خليل الله لم تقبل في مشرك؛ فكيف بمن دون الخليل عليه السلام؟!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾[النساء:٤٨].

ولذا؛ فإن من أوجب الواجبات على العبد: توحيد الله في العبادة.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بأنه (الأحد والواحد عز وجل): ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾[الإخلاص: ١]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾[التوبة:٣١].

ونقف مع هذين الاسمين نتفيأ في ظلالهما؛ لعل الله يرزقنا تحقيق توحيده، وحسن الإيمان بتفرده ووحدانيته:

ربنا عز وجل المتفرِّد بصفات المجد والجلال، المتوحِّد بنعوت العظمة والكبرياء والجمال.

فهو واحد في ذاته؛ لا شبيه له.

وواحد فِي صفاته؛ لا مثيل له.

وواحد فِي أفعاله؛ لا شريك له ولا ظهير.

وواحد فِي ألوهيته؛ فليس له ند في المحبة والتعظيم، والذل والخضوع.

وهو الواحد الذي عظمت صفاته؛ حتى تفرد بكل كمال، وتعذر على جميع الخلق أن يحيطوا بشيء من صفاته، أو يدركوا شيئًا من نعوته؛ فضلاً عن أن يماثله أحد في شيء منها.

❐ الفطرة..

والوحدانية: هي خلاصة دعوة الرسل، وقوام رسالاتهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[الأنبياء: ١٠٨].

والوحدانية: هي فطرة الله ﷻ التي فطر الناس عليها، وميثاقه الذي أخذه من الناس، ودعوة رسله التي بعثوا بها، ومنطوق كتبه التي أنزلها.

ومن أجلها قام سوق الجنة وسوق النار، وبسببها مد الصراط، وتطايرت الصحف، ووضع الميزان، وسل سيف الملة، ورفع علم الجهاد، وطارت أرواح الشهداء، ولذ طعم الموت، وأمهرت المنايا نفوس المقاتلين، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾[فصلت:٦].

وفي تقرير الوحدانية ووجوب إخلاص الدِّين له قال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البيِّنة:٥].

وأوجب ﷻ الخضوع لوحدانيته وعظمته: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾[الحج:٣٤].

الدليل الواضح:

وقد أبطل عقائد المشركين؛ فقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾[النحل:٥١]، ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾[يوسف:٣٩].

ورد على من قال: إن الله ثالث ثلاثة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[النساء:١٧١].

ونفى المثل والند والكفء من جميع الوجوه؛ فهو ﷻ: الأحد الذي لا مثيل له ولا نظير؛ ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾[مريم:٦٥].

ونهانا أن نشبهه بشيء من مخلوقاته، إلا أنه أخبرنا عن نفسه؛ وهو أعلم بنفسه.

وكل ما خطر في بال البشر عن الله ﷻ؛ فالله بخلاف ذلك، فليس له ند ولا نظير ولا شبيه ولا مثيل، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشورى:١١]، فلا يشبهه أحد من خلقه، فله الأسماء الحسنى والصفات العليا، وله الكمال والجمال والجلال والعظمة والمجد والكبرياء.

قال المشركون لرسول الله ﷺ: صف لنا ربك! أمن ذهب هو؟ أم من نحاس أم صفر؟ وكان بعضهم يقول: انسب لنا ربك يا محمد!

وكانت اليهود تقول: نحن نعبد عزيرًا ابن الله، والنصارى يقولون: نحن نعبد المسيح ابن الله، وكانت المجوس تقول: نحن نعبد الشمس والقمر، وكان المشركون يقولون: نحن نعبد الأوثان..

فأجابهم الله ﷻ بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١].

تعالى عما يقولون!

تجرؤوا على الله ﷻ، وجاؤوا بجريمة نكراء، كادت السماوات لعظمتها تنفطر، والأرض تنشق، والجبال تخر هدا!! أن نسبوا لله الولد -تعالى الله عما يقولون!-.

فالكل تحت ملكه وقهره، وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم:٨٩-٩٥].

وفي «صحيح البخاري»: أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي! وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي! فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ؛ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ مَا يَكُوْنُ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ.

وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ؛ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا اللهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ؛ الَّذِي لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ».

فالله سبحانه وتعالى إله واحد؛ ليس له شريك، وليس له مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

❑ الكون يشهد بوحدانيته:

كل ما في الكون من إبداع ونظام وتوافق وانسجام؛ يدل على: أن مبدعه ومدبره واحد، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من مدبر وأكثر من منظم؛ لاختل نظامه، واضطربت سننه؛ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾[الأنبياء:٢٢].

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قَضَبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

❑ الله أغنى الشركاء عن الشرك..

فالله عز وجل المستحق وحده العبادة؛ فلا يتوجه العبد لغير الله، ولا يصرف لغيره شيئًا من العبادات: صلاةً كانت أو دعاءً أو ذبحًا أو نذرًا أو توكلاً أو رجاءً أو خوفًا أو خشوعًا أو خضوعًا: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾[الأنعام:١٦٢-

١٦٣].

فالقضية العظمى هي: إفراد اللهِ بالعبادة؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[التوبة:٣١].

فالتوحيد ألطف شيء وأنزهه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه.

صح عنه ﷺ أنه قال: «قَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» [أخرجه مسلم].

وصح عنه ﷺ قوله: «إِذَا جَمَعَ اللهُ ﷻ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ؛ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للهِ أَحَدًا؛ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدَ غَيْرِ اللهِ ﷻ، فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»[حديث حسن. رواه أحمد في «المسند»].

❐ ذكرى..

في صحيح السُّنَّة أحاديث كثيرة تحثُّ على التوحيد، وتبيِّن فضله، منها:

حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةً؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ،

وَكَانَتِ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»[أخرجه البخاري ومسلم].

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود عن بريدة: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد!

قال ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ؛ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»[حديث صحيح].

ودخل الرسول ﷺ المسجد وسمع رجلاً يدعو: اللهم! إني أسألك يا الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن لك كفواً أحد: أن تغفر لي ذنوبي؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

فقال ﷺ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ» ثلاث مرار. [حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "تحقيق كلمة التوحيد يُوجب عتق الرقاب، وعتق الرقاب يوجب العتق من النار".

وقال رحمه الله: "من أسباب المغفرة: (التوحيد)، وهو السبب الأعظم، فمن فقده فقدَ المغفرة، و من جاءَ به فقد أتى بأعظمِ أسبابِ المغفرة" .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "التوحيد :أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا؛ كما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ»، فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد :أول الأمر

وآخره".

وقال ﷺ : "فما دُفِعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد".

وقال ﷺ : "لا يدخل الجنة نفس مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد؛ فإن التوحيد هو مفتاح بابها".

قال ابن الجوزي ﷺ: "كان سفيان الثوري يأتي إبراهيم بن أدهم فيقول: يا إبراهيم! ادعُ الله أن يقبضنا على التوحيد".

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً كان يدعو بإصبعيه؛ فقال له ﷺ: «أَحَدٌ أَحَدٌ!» [حديث صحيح. رواه أبو داود]، وفيه: إذا أراد أن يشير في الدعاء فلا يشير إلا بإصبع واحدة.

اللهم إنا نسألك يا واحد.. يا أحد.. يا صمد! أن تجعلنا ممن دعاك فأجبته، وممن تضرع إليك فرحمته، وممن استجارك فأجرته من النار، واجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله فأنت أرحم الراحمين.